محمد أفندى ...!

قيل وما أكثر ما قيل إن قلة الذوق فى مجتمعاتنا مردها فى الغالب إلى خلوها من المرأة ؛ وإلى هذا أشار صاحب الرسالة فى أكثر من مناسبة ، وعنده أن الشباب إذا ازدانت مجتمعاتهم بالأوانس شدوا الشكيمة وكبحوا جماحهم وحرص كل امرىء منهم على أن يظهر على خير ما يحب من دماثة الخلق ورقة الحاشية ولطف الحديث

ولكن منظارى قاتله الله بل عافاه الله وصرف عنه كل غشاوة يأبى إلا أن يكشف لى عن موقف لا تتحقق فيه هذه الفكرة بل لقد نقضت فيه من أصولها وجاء الأمر على عكس ما تفاءل المتفائلون وتمنى الكاتبون

كنت مسافراً إلى الريف الحبيب فى قطار فالتقيت فى ممر من ممراته بثلاثة من الشبان تقاربت أعمارهم ، وكان كل منهم بادى العافية حسن البزة متهلل القسمات ؛ ونادى أحدهم رابعاً لهم كان فى اتجاهى يسبقنى بخطوات فقال له : أمامك فى هذه العربة قبل الآخر بديوان تجد محمد أفندى إلى جانب الشباك الأيمن وقد حجزنا أمكنة فانتظرنا هناك

ودخل « رابعهم » هذا الديوان المشار إليه وأحسست كأنى أنجذب إلى هذا الديوان نفسه فدخلت واتخذت مكانى ، ولكنى لم أجد إلى جانب الشباك الأيمن غير آنسة أجنبية لم تقع عينى فى نهارى كله على أجمل منها صورة وأملح منها محيا ، وبدت لى فى منتصف العقد الثالث من عمرها كالوردة فى زمن الورد بلغت أقصى تفتحها ومنتهى ريعانها

وكانت متجهة ببصرها إلى النافذة ، لا تلتفت إلا ريثما ترمق الداخل ، ثم تعود فتتجه اتجاهها الأول ، وكان على محياها الجميل ما يشبه الهم من فرط سكونها واحتشامها

وتحرك القطار وجاء الشبان الثلاثة وجلسوا فى ضوضاء بعد أن نظر كل منهم إلى هيئته فى المرآة ، فأصلح ما تشعث منها ، وتشاغلت عنهم بكتاب فى يدى ، ولكن منظارى لم يغفل عنهم ، فرأيتهم يتخاطبون بالأحداق لحظة ، وعلى فم كل منهم ابتسامة خبيثة ، وكلهم يومىء لصاحبه برأسه نحو النافذة اليمنى

وقطع أحدهم فترة هذه الإشارات اللاسلكية بقوله : « محمد أفندى تقلان علينا يعنى قوى » ؛ وضحك الآخرون ضحكات ماجنة مائعة ... وفطنت أن محمد أفندى لم يكن غير تلك الآنسة التى تتجه بنظرها إلى الفضاء الممتد خارج القطار !

وأيقن أربعتهم أنها لا تعرف العربية . فانطلقت ألسنتهم بألوان من الفحة ، عجبت ولن أزال فى عجب ، أن لم يبد على وجه أحدهم أى قدر من الخجل لتلك الألفاظ التى أخجل الآن لمجرد أن أتذكرها ! ثم ذهب كل منهم يتظرف بما وسعته سماجته ، فهذا يأتى بضروب من النكات لا يسيغها إلا ذوقه وذوق أصحابه ، وذلك يداعب خاتمه الماسى وساعته الذهبية ، وآخر يخرج حافظة نقوده فيقلب الأوراق المالية ثم يردها إلى جيبه ، هذا فضلاً عما تنافسوا فى سرده من المغامرات التى صرف فيها ما صرف من الأموال وكلها بالضرورة من نسج الخيال — كل أولئك و « محمد أفندى » فى شغل عن ظرفهم ولطف حديثهم بالنظر إلى فضاء الأرض

ولما أفرغوا ما فى جعبهم من بارد النكات وسخيف الحكايات انتظرت أن يتطرق إليهم اليأس أو يعسهم شىء من برودة الموقف فيخجلون ؛ ولكنهم انتقلوا إلى ما هو أدهى وأمر مما كانوا فيه فراحوا يصفون فى طريقة بهيمية جمال تلك الآنسة التى لم يبد على قسماتها إلا ما يبدو على قسمات تمثال من التماثيل من الثبات

الفوارق ، لكن أنى للكشف وغير الكشف أن يزيل الفوارق وفى الدنيا من جنود الشيطان أضعاف أضعاف بنى الإنسان

رحمك الله يا جبار الكشف وأنعم بك من حرب حطم القيود وزحزح العقبات من طريق مبادئه الصحيحة !

ها هى ذى الفقرة الأخيرة من رسالته التى أذاعها لأبنائه كشاف العالم من روديسيا : « لقد عشت جندياً ثم كشافاً ، أما المرحلة الثالثة من حياتى فتتوقف على ما يريده لى الأطباء »

ذلكم هو المرحوم الدكتور روبرت بادن باول ولورد جلويل وملك قلب كل كشاف ، فرحمة الله رحمة واسعة

خميس زهران
زعيم جوالة بالإسكندرية